



المنظر الأول

د. عبد الحميد إبراهيم

«مكان بمسجد، وقد ظهرت حلقة من حلقات الدروس يتوسطها شيخ ذو حبة جميلة تبدو عليه المهابة، وقد تناثر حوله مجموعة من تلاميذه ومريديه».

الشيخ (مستمراً في وعظه): - وقد أمرنا الله تعالى بأن نأخذ فوق أيدي الظالمين، وألا نستكين لهم ولا نستئين. وإذا ولو أمراً من أمورنا، فيجب أن نتفض عليهم، ولا نستجيب لهم، والساكت على الظلم كفاعله، وفاعله في النار. أحد التلاميذ: وماذا ترى يا شيخنا في هذه الأنباء الأخيرة؟ الشيخ: أي نبأ تعني يا بني، فما أكثر الأنباء في عصرنا؟ التلميذ: ألم يأتك نبأ بيعة الظاهر بيبرس «حاكماً على مصر»؟ الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أليس من العجب العجائب أن يلي أمورنا رقيق يباع ويشترى! أليس من العجب أن نباع هذا العبد حاكماً علينا! (يرفع يديه نحو السماء) اللهم إني أعاهدك على أنه لا طاعة لهذا العبد حتى يخرج من رقه. (ثم يلتفت للحاضرين) وانتم أيضاً عاهدوا الله على ذلك. الجميع (بصوت واحد يرتج له المسجد): اللهم إنا نعاهدك على أنه لا طاعة لهذا العبد حتى يخرج من رقه. تلميذ آخر: وقد سمعنا أنه أرسل لك الرسل الكثير، ولكنك امتنعت عن الذهاب إليه. الشيخ: قلت للرسل حينذاك: من يريدني فما أنذا في حلقتي بالمسجد، وليس لي حاجة عند بيبرس فأذهب إليه، فإن كان لبيبرس حاجة عندي، فليأتني في حلقتي وبين تلاميذي. (وبينما هم في حديثهم ترتفع ضجة عند باب المسجد، ويتهاشم الناس بأن الظاهر بيبرس قد أقبل ليزور الشيخ عز الدين بن عبد السلام). الظاهر بيبرس -داخلاً وحوله أتباعه-: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. الشيخ: السلام على من اتبع الهدى. (يجلس بيبرس، بينما يستمر الشيخ في وعظه، وتلاميذه في جواره). الشيخ: وقد توعد الله الظالمين بالكثير في كتابه، فقال: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم

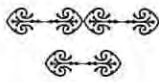
تشخص فيه الأبصار﴾، والظلم أنواع، وشر أنواعه ما كان صادراً من وإل، وقد أمرنا الله بأن ننكت العهد مع هؤلاء الظالمين. بيبرس: وهل حدث مني ظلم لرعييتي حتى تمتنع عن مقابلتي؟ الشيخ: ومتى كان لك رعية حتى تظلمها؟ بيبرس: أنتكر ذلك وقد بايعني أهل المشرق وأهل المغرب! الشيخ: ولكن لم يبايعك عز الدين وتلاميذه. بيبرس: كيف ذا، وقد قال الله تعالى ﴿يأياها الذين آمنوا، أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم﴾. الشيخ: قال «منكم» ولم يقل من عبيدكم. بيبرس: لقد زدت وغاليت. الشيخ: وهل في الحق زيادة؟ بيبرس: ليس من الحق أن تخاطب الحاكم هكذا! الشيخ: لست أخاطب حاكماً. بيبرس (وقد خفض من صوته): وما الذي يمنعك من أن تتخذه حاكماً. الشيخ: لأن الحر لا يتخذ العبد راعياً. بيبرس: وإذا ثبت أن العبد حر. الشيخ: إذن فقد بايع الحر حراً. بيبرس: إنك تثق في هذين العالمين من أصدقائك (ثم لأحد أتباعه) استدع هذين العالمين إلى مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام. (بعد لحظة يدخل العالمان، فيستقبلهما الشيخ واقفاً، ثم يجلسان ويجلس) الشيخ (موجهاً كلامه للعالمين): أتشهدان على أن الظاهر بيبرس قد خرج عن رقه. العالمان: اللهم إنا نشهد على ذلك. بيبرس (وقد تهللت أساريه): وماذا ترى إذن. الشيخ: إذن فقد بايع عز الدين وتلاميذه الظاهر بيبرس، على أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه، وأن يسعى لصالح الرعية. (ينحني بيبرس على يد الشيخ مودعاً ثم ينصرف).

* كتبت هذه المسرحية وأنا في مرحلة التعليم الثانوي، واكتشفتها أخيراً بين أوراق، اكتشفت معها أن المرء يستطيع أن يكتب من الإبداع وهو في مرحلة الثانوي ما لا يستطيعه بعد أن تثقل عليه الحياة الجامعية، وقد رأيت أن أنشرها كما هي، فقد يكون لها من الدلالات الفنية والإشارات التاريخية، ما لم يخطر لي على بال.

المنظر الثاني

(في بيت نائب السلطان، وقد اجتمع أمراء الممالك يتشاورون، وتظهر في غرفة مجاورة «جلنار» ابنة نائب السلطان، تسمع على ما يقولون).

ونحن سادة الأرض، والله لأضربنه بسيفي.
(وتسمع جلنار وهي واقفة في الغرفة المجاورة تهديد أبيها فترتعد فرحاً، فقد أحست منذ الساعة بأن هذا الشيخ أقوى من أبيها ومن الأمراء جميعاً، وخسارة أن يذهب ضحية غرورهم، وبينما هي تحاور نفسها يأتيها صوت أبيها صائحاً)
نائب السلطان: جلنار، جلنار، أين أنت؟
جلنار (تقبل): أبت، ماذا تريد؟
نائب السلطان (واقفاً): السيف، أين سيفي، عليّ به (جلنار لا تتحرك) لماذا تقفين هكذا كالتمثال تحركي (جلنار صامتة) ماذا جرى لك يا جلنار؟ تحركي وائتني بسيفي.
جلنار (بصوت خفيض): ماذا تريد يا أبت!
نائب السلطان (متعجباً): أريد سيفي، فماذا دهاك؟
جلنار (متسائلة): ولماذا تريد سيفك؟
نائب السلطان: لم أعهدك قبل اليوم تسألين (بصوت عال) خليل، خليل، ائتني بسيفي (موجهاً كلامه لجلنار) أما أنت يا جلنار فاذهبي إلى سريرك واستريحي، سأخرج لشأن ثم آتيكم.



أمير: عجيب أن نسمع بهذه الأنباء!
ثان: وهل يجاهر بهذه الأنباء، أظنه قد أصيب في عقله.
ثالث: ربما يكون الأمر مجرد «نادرة» من نوادر الشعب المصري، فما أكثر نوادره، خصوصاً هذه الأيام.
نائب السلطان (جاداً): ولكن السلطان قد أخبرني بهذا، وبأن الشيخ إذا عزم على أمر فلا رادّ له إلا الله.
رابع: وقد علمت بأن أفتى بأن تصرفاتنا في البيع والشراء والزواج والعقود باطلة مردودة.
خامس: وقد مررت البارحة بتجار هذا الحي، فأشاحوا عني بوجوههم.
سادس: وقد طلبت من أحدهم ابنته، فقال: حتى يأذن الشيخ.
أحدهم ضاحكاً: وأنت «يا فيل»، ما أحسنك شكلاً، حينما يجرك النخاس في السوق، وينادي «مملوك للبيع متمرن على حمل الأثقال».
آخر ساخراً: ولكن بطنه ستصرف عنه المشترين، فهم لا يريدون أن يخنزوا فيها الأطعمة.
آخر متهكماً: ولكن لا تنسى أن شخيره يطرد اللصوص.
نائب السلطان جاداً: أتمزحون وعز الدين بن عبد السلام يريد بيعكم، ووضع ثمنكم في بيت المال.
أحدهم (ضاحكاً): ولكن ما دام معنا هذا الفيل، فمن سيشترينا.

الفيل (وقد تنبه): الفيل على أي حال خير من الحمير.
نائب السلطان (وقد هب واقفاً): صه! كيف يتجرأ علينا،

المنظر الثالث

(الشيخ عز الدين في بيته، سرير قد تناثر عليه بعض الكتب، مصباح يرسل شعاعاً خافتاً، وبجواره ابنه يتحدثان، ثم يسمعان طرقاً على الباب).

اعف عني، ساحني، لقد أخطأت.
الشيخ (يترقب به ويوقفه): قف، فكثيراً ما تخطيء النفوس، ولكن
أيضاً ما تتسع الصدور.
الفارس (وقد وقف خاشعاً خاضعاً): لك كل ما تريد، افعل كل ما
تريد، افعل كل ما تريد، لك كل ما تريد.
(يرفع الفارس بصره، فيقع على شخص خلف الشيخ
فينكره، ثم يقع عليه ثانية فيصره، وتدور به الدنيا،
ويمسك رأسه بيديه).
جلنار (بصوت فيه فرح): أبت، أبت. (ولكنه لا يجيب).
جلنار (ترفع من صوتها): أبت، أحمد الله، وأشكر نعمته.
الفارس (يخاطب نفسه): جلنار، أين أنا، وأين هما، لقد تركتهما في
مخدعها تنعم في أحلامها (يصرخ) لقد جنت، لقد ذهب
عقلي، أيها الشيخ اعف عني، ساحني، لقد جنت، أين أنا
من جلنار، أيها الشيخ ساحني، اعف عني.
الشيخ (متلطفاً): لا ترع، فأنت بخير، إنها جلنار ابتنتك، فلا ترع.
الفتاة (بصوت فيه رفيق): أبت، أنت بخير، أنا جلنار ابتنتك، لقد
سبقتك هنا إلى منزل الشيخ.
الفارس (وقد فهم): إن لك عقلاً لا يسلمك إلا إلى خير.
الشيخ (يخاطب الفارس): هل تحبيني إلى شيء أطلبه منك أيها
الصادق.
الفارس: لك كل ما تطلب.
الشيخ: هل هناك مانع من أن تصاهرنا.
(يظهر الفرح على وجه جلنار، ويصبح أبوها مسروراً).
الفارس: لم نصل إلى هذه المنزلة.
الشيخ: إنني أريد ابتنتك لابي.
(يظهر السرور على وجه الفتى، ويتغير وجه جلنار).
الفارس: لك كل ما تريد، إنها ابتنتك.
جلنار (مطرقة إلى الأرض، وبصوت فيه حياء): ولكني لا أريد
الزواج إلا بمن أختار قلبي، وقطعت الطريق من أجله،
وتحملت في ذلك ما تحملت.
الشيخ (وقد فهم): ولكنني في سن أبك.
الفتاة (بصوت فيه رجاء): ولكن هذا ما اختارته نفسي لأكون دائماً
قريبة من الشيخ.
الشيخ (للفارس): هل توافق.
الفارس (مُغبتاً): نعم ما اخترت يا ابنتي، إنك لكيسة حسيمة
العقل.
(يضم الفارس ابنته إلى صدره، ويوارى الفتى وجهه وهو
يغالب دموعه).

ستار الختام

الشيخ: انظر من الطارق يا بني.
الشاب (وقد أطل من كوة): إنه شيخ ملثم يا أبت.
الشيخ: افتح له، فلعله ضال يريد مأوى، فإنها لساعة متأخرة من
الليل.
(يتقدم الأب ويفتح الباب، يندفع المثلث داخلاً ويقف أمام
عز الدين لاهثاً، عز الدين يتلطف به ويجلسه).
عز الدين: إنها ليلة سعيدة أن تشرنا يا أبا العرب (لا يجيب).
عز الدين: إلى أين تقصد في هزيع الليل يا أبا العرب (صامت).
عز الدين (لابنه): علينا بمشروب يا بني (ثم للمثلث) أي الشراب
تختار (ولكنه لا يجيب).
(ثم يلقي الرجل بالثام، ويباغث الشيخ عز الدين وابنه،
فقد وجدا أمامهما امرأة كاملة الأنوثة).
المرأة: لا تستغربا، فأنا جلنار بنت نائب السلطان.
عز الدين (وقد استرد هدوءه)، فهل يحق لنا أن نسأل عن الذي جاء
بك في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل.
جلنار: إن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج، إني لك لمن
الناصحين.
عز الدين: أفصحني يا ابنتي!
جلنار: إن أبي والأمراء يأتمرون بك ليقتلوك، وسيأتي أبي بعد لحظة
ليضربك بسيفه.
عز الدين (هادئاً): لا تراعي يا ابنتي، فإذا جاء أجلهم لا
يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.
عز الدين لابنه (بصوت فيه شيء يحس به الابن): اثنا بمشروب يا
بني، فإنها الليلة ضيفك.
(يجلس الثلاثة يتحدثون، الفتاة يكاد حرصها يفضحها،
والشيخ يتحدث بصوت فيه شيء يوحي به إلى ابنه، أما
الابن فهو ساهم واجم، ثم يسمعون طرقاً على الباب فيهب
عز الدين واقفاً).
الفتاة (تشبهت به): بربك لا تخرج، ابق على حياتك، فسأنظر من
الطارق.
الشيخ (بصوت يبدو فيه الإيثار): ولكنك يا ابنتي تمنعيني من شيء
أريده منذ أمد بعيد.
الفتى: بربك يا أبت! لا تبرح مكانك، فسأنظر أنا من الطارق.
الشيخ (بصوت فيه عتاب): يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في
سبيل الله.
(ينفعل الشيخ منها، ويندفع نحو الباب، يتبعه الفتى
والفتاة، ويقلب ثابت يفتح الشيخ الباب، فيرى على عتبة
فارساً مدججاً بالسلاح، يرفع الفارس سيفه ليضرب به
هامة الشيخ، ولكن يده ترتجف لهية الشيخ..
الفارس (يجثو على قدمي الشيخ، ويقول بصوت يختنق فيه بالبكاء):